من تراثنا :

تعريف بكتاب
« اهتمام المحدثين بنقد الحديث سندا ومتنا »

الدكتور محمد لقمان السلفي
+++++++++++++++++

إن السنة النبوية الشريفة مصدر ثان من مصادر التشريع ، وبها نعلم كثيرا من الأحكام ، ونطلع على تفاصيل العبادات التي فرضها الله تعالى على العباد ، بين النبي ﷺ بالسنة ما نزل اليه ، ونطق القرآن الكريم بوجوب اتباع هذه السنة وبأهميتها فى باب التشريع والتربية . ومن هنا تركز اهتمام المسلمين فى كل عصر حول السنة ، فحفظوها وعضوا عليها بالنواجذ ونشروها بين الناس ووضعوا القواعد والفنون للحفاظ على هذا التراث الغالي المهم .

ونظرا الى أهمية السنة هذه وضرورة نشرها والدفاع عنها تفرغ لها علماء المسلمين ، فألفوا الكتب ، ونظموا حلقات الدرس ، حتى تتجلى أهمية السنة وتتبين حجيتها فى الأحكام ، ويتم تفنيد المزاعم والشبهات التي تثار حول هذا المصدر التشريعي المهم .

والسنة عبر التاريخ تعرضت لمطاعن أهل الأهواء والضلالات ، وأجاد علماء الاسلام فى الرد على هذه المطاعن ، وفى نفس الوقت بذلوا جهوداً طيبة فى خدمة السنة ، وقدموا دراسات موضوعية تكفلت ببيان مكانة السنة وضرورة

العودة إليها فى التشريع . وفى العصر الحديث ، حيث قامت نهضة علمية فى البلدان الاسلامية ، اهتم العلماء بدراسة السنة أيضا ، وجامعات العالم الاسلامى ساهمت فى هذا المجال مساهمة فعالة ، وخاصة جامعات المملكة العربية السعودية وجامعة الأزهر . فقد انكب طلبة العلم على تراث السنة الشريفة ، وأخرجوا الى النور كثيرا من مخطوطات الحديث بعد التصحيح والتعليق وقدموا لمؤلفيها وعرفوا بمكانتها وأهميتها .

وكذلك تم التأليف حول كثير من الموضوعات التى تعلقت بالسنة ، مثل أهمية السنة وحجيتها ، وجمعها وتدوينها ، وتاريخها وتطور المؤلفات والمجاميع فيها ، وشروط الأئمة المؤلفين فيها ، ومراتب الكتب التى ألفت فيها ، وأصول الرواية والدراية ومدى أهميتها ، وأهمية منهج المحدثين فى نقد الروايات والحكم على الرواة ، وما إلى ذلك . وهناك كثير من الموضوعات التى أجريت حولها الدراسات وتمت مناقشتها فى المؤتمرات والندوات التى انعقدت على الصعيد العالمى أو على مستوى العالم الاسلامى .

وقريبا ظهر كتاب قيم يتناول جهود المحدثين فى نقد الحديث باسم « اهتمام المحدثين بنقد الحديث سندا ومتنا ودحض مزاعم المستشرقين وأتباعهم » من تأليف الدكتور محمد لقمان السلفى .

يقع هذا الكتاب فى ٥٨٤ صفحة ويستحق أن نعرف به تعريفا وافيا ، ولكن أكتفى الآن بالسطور التالية :

إن أهمية الدراسة التى قام بها الدكتور محمد لقمان تأتى من النواحى العديدة :

١ — ان الباحث ينتمى الى جماعة أهل الحديث بالهند ، وإن هذه الجماعة قد دخلت معارك حامية ضد منكرى حجية السنة فى شبه القارة ، وتتبعت خطواتهم ، وفندت مزاعمهم ، حتى أثبتت بالأدلة والبراهين أن السنة الشريفة مصدر من

مصادر التشريع ، ودون الاهتداء بها لا يمكنها العمل بالشريعة الاسلامية .

٢ — وأنه بصفة انتمائه الى الهند قد اطلع على معظم ما كتب باللغة الأردية حول حجية السنة وشبهات أهل الأهواء بهذا الصدد ، كما أنه تعمق فى المصادر المتوفرة باللغة العربية وكذلك باللغة الانجليزية .

٣ — وأنه أحاط بكثير من الملابسات التاريخية التى مرت بها حركة انكار السنة فى شبه القارة الهندية ، وتتبع المراحل والتطورات التى طرأت على هذه الحركة ، وكيف ان النقاش طال و تعقد بين علماء أهل السنة و بين الفرق الضالة والشخصيات المنحرفة التى خرجت على السنة وحاولت بذلك تشويه معالم الشريعة الاسلامية والنيل من سموها وكمالها ، وكيف ان أهل الأهواء والأغراض انسحبوا من الساحة صاغرين خاسئين .

٤ — وأنه أسس دراسته على أسس ثابتة ، فقد تناول بدقة وعمق المراحل التى مر بها علم نقد الحديث الى أن وصل إلى مرحلة التدوين ، وتكلم على المؤلفات الشهيرة فى هذا الباب وعلى الشخصيات التى ساهمت فيه ، وساق النصوص من المصادر ليبرهن على حرص المحدثين على نقد الحديث و شدة عنايتهم بالتمحيص والانتقاء حتى يبقى تراث السنة خالصا من الشوائب يهتدى به المسلمون فى كل عصر .

٥ — وأنه خصص بابا مستقلا لعرض مزاعم المستشرقين ومن تبعهم ، ثم تولى الرد عليهم بالأدلة العلمية ، وكشف حقيقة ادعائهم بأنهم لا يتبعون إلا المنهج العلمى ولا يهدفون إلا الى الوصول الى النتائج السليمة التى يقرها المنطق والعقل !

ولا شك أن هذا الباب يعد أنفع وأهم لكل من يريد الاطلاع على المطاعن الموجهة الى السنة ، وعلى الكتابات التى فندت هذه المطاعن .

٦ — ولابراز الرواسب التاريخية لحركة الاساءة إلى مكانة الصحابة والى

السنة النبوية أشار المؤلف الى دور ابن سبأ ومن تبعه من الروافض عن تعمد الكذب على النبي ﷺ وإثارة الفتن بين جماعة المسلمين.

٧ — ان الطاعنين فى السنة النبوية يدعون أنهم اذ يتكلمون حول السنة لا ينتهجون إلا المنهج العلمى ولا يريدون إلا الموضوعية و الحياد!

ولكشف هذا التضليل وخبث نوايا أعداء السنة يقول المؤلف:

« لقد تأكد عند المستشرقين والمبشرين — وهم من أكبر أعداء السنة — أن السنة هى المصدر الثانى للشريعة الاسلامية، وأنه لا يمكن الوصول الى الأهداف الذميمة التى قصدوها إلا اذا هدم هذا المصدر... ولذلك حاولوا قبل كل شىء أن يلقوا فى الأذهان أن أعمال الرسول ﷺ وتوجيهاته وقيادته انما كانت صالحه لفترة الجاهلية، وتلك المرحلة قد انتهت وليس من الاصلاح أن تصحب توجيهات الرسول الى العصر الحاضر، فشتان بين العصرين. ثم تدرجوا الى الأمام وأرادوا أن يبحثوا عن مطاعن فى الحديث النبوى، وحاولوا إقناع قرائهم أن الأحاديث متناقضة الخ ».

٨ — عناية المحدثين بنقد الحديث سندا ومتنا كانت مضرب المثل، ومنهجم فى الجرح والتعديل كان منهجا فريدا، ولذا اضطر بعض المنصفين للاعتراف بذلك، ولكن هناك ناس يزعمون أن المحدثين اعتنوا بناحية السند فقط وأهملوا ناحية المتن!

يرد الدكتور محمد لقمان على هذا الزعم فيقول:

« أثبت بالدلائل العلمية أن المتن هو الذى كان محور نقد المحدثين، وأن السند والمتن جزءان لا يتجزءان من علوم الحديث و نقده، وأن جميع العلوم الخاصة بنقد الحديث روعى فيها نقد المتن تماما، كما روعى فيها نقد السند ».

٩ — ولإعطاء الخلفية التاريخية لفتنة إنكار السنة قال المؤلف :

« ماتت الفتنة بنهاية القرن الثالث الهجرى ، و ظلت مقبورة حتى أحياهـا من جديد أناس فى البلدان العربية وأشخاص فى شبه القارة الهندية » .

أثارها فى البلاد العربية توفيق صدقى وأحمد أمين واساعيل أدهم وأبورية وأصبحت مؤامرة محبوكة فى شبه القارة الهندية و اتخذت طابع جماعة منظمة منذ أوائل هذا القرن .

وعن علاقة الاستعمار الانجليزى بالقضية يقول الدكتور محمد لقمان :

« ولا يخفى على من لديه إلمام بمؤامرات الاستعمار الانجليزى فى البلدان الاسلاميـة أنه كلما دخل بلدا اسلاميا سعى للتفريق بين المسلمين و اتخذ جميع السبل الممكنة لهذا الغرض . ومن سوء طالع المسلمين فى القارة الهنديـة أنهم ابتلوا بهذا النوع من المؤامرات أشد مما وجدت فى البلدان الاسلامية الأخرى . ففيها وجدت القاديانية التى ظهر للعالم كله سوء طويتها وهدفها الخفى وهو التفريق بين المسلمين . والبريلوية التى لم تكن إلا غرسا للاستعمار ، ولم تختلف أهـدافها من الفئة التى سبق ذكرها . ثم أوجد الاستعمار فرقة أهل القرآن ليشغل المسلمين بزرع الخلافات بينهم والأفكار الغريبة عن الاسلام . وقد اختار الاستعمار منهم أفرادا وجد فيهم الانحراف عن الدين و التحلل عن المثل العليـا ، ليكونوا عملاء ينشرون هذه الأفكار بين المسلمين ويخدمون الأهداف المشبوهـة للاستعمار .

ويمكن أن نمثل لهذا بالسير سيد أحمد خان الذى لقبه الانجليز بنجم الهند، ولقبوا نذير أحمد أحد أعضاء حركة أهل القرآن بشمس العلماء . وكذلك عبدالله الجكرالوى و أمثاله الذين رباهم الانجليز لخدمة أهدافهم فحظوا بحظوظ وافرة دنيوية من الانجليز » .

١٠ — وفى خاتمة الكتاب أشار المؤلف الى خلاصة دراسته فقال :

« وبهذا عرفنا أن السنة النبوية حفظت بحفظ الله لها ، ووصلت الينا صافية نقية من كل الشوائب والشكوك ، اذ قيض الله لها الأئمـة العظام الذين سلكوا المنهج القويم المتضمن نقد السند والمتن بكل ما تعنى الكلمة من المعانى والمفاهيم ، فميزوا صحيحها من سقيمها ، وجمعوا الأحاديث الثابتة الصحيحة فى مجموعات حديثية قبلتها الأمة بالاجماع مصدرا لتشريعها ومأخذا لجميع الخيرات الدنيوية الأخروية.

وأن الشبهات التى تثار ضدها من قبل أعـداء الإسلام أو أبنائه المغترين لا تقوم فى وجه الدليل والاحتجاج العلمى أدنى قيام ، وأنها أغاليط و تمويهات تنكشف وتزول عند ما تواجـه المنهج العلمى الأصيل الـذى هو منهج النقد عند المحدثين » .

وحتى تحصل للقراء الكرام فكرة إجمالية عن محتوى هذه الدراسة القيمـة أسرد موجزا عن الكتاب فى السطور التالية :

يحتوى هذا الكتاب على مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة .

أما المدخل فقد تضمن سبعة مقاصد ، و فى الباب الأول أربعـة فصول ، وكذلك فى الباب الثانى ، أما الباب الثالث ففيه ثلاثة فصول .

وفى المقصد الأول من المدخل أورد المؤلف توجيهات من القرآن الكريم والسنة النبوية للدلالة على أن رواية الحديث وتلقيه عن الآخرين يحتاج الى كثير من التحرى والتثبت والدقة .

ثم ساق أسماء بعض الصحابة مرتبة حسب السنين ، وبين ايثـارهم مسلك التثبت من صحة النقل والتحرز من الوهم واثارة الشبه حول بعض الروايات .

وفى المقصد الثانى ألقى الضوء على نشأة علم الحـديث ، وأسباب الاهتمام بهذا النقد ، وكيف كان هذا النقد فى دور التابعين ، وأتبـاعهم ، وكيف ظهرت التقعيدات العامة للنقد .

والمقصد الثالث يتناول تكامل علم نقد الحديث. وفى النقطة الثانية من هذا المقصد أورد المؤلف النتائج العلمية لدراسته لحياة الأئمة النقاد من أتباع التابعين، ولخص هذه النتائج فى أربع نقاط وصل بعدها الى أن أتباع التابعين أخذوا علم الأصحاب وعلم التابعين وزادوا عليه ما اجتمع لديهم من خبرتهم الشخصية ومعرفتهم للرجال.

وفى نهاية هذا المقصد أورد المؤلف الجدول البيانى لأئمة النقد فذكر سبعين اماما كان لهم دور عظيم فى جمع السنن من الأمصار وإطلاق الجرح على المتروكين والقدح على الضعفاء وبيان كيفية أحوال الثقات والمدلسين والأئمة والمتروكين.

وفى المقصد الرابع أجمل المؤلف الكلام عن المراحل الأربع التى مربها تدوين النقد وهى مرحلة النشأة، ومرحلة انفصال علوم النقد عن كتب الحديث، ومرحلة انفصال مادة العلل عن مادة نقد الرجال، ومرحلة التدوين. وفى هذا المقصد بين سبب تأخر تدوين علوم النقد فقال:

« انه أمر طبيعى جدا أن يتأخر تدوين ما كان يتعلق بالنقد عن تدوين الأحاديث النبوية، اذ ان وجود تلك الآراء كان تابعا للأسباب والدواعى التى تأخرت عن وجود الحديث، ألا وهى الكذب على رسول الله ﷺ والتساهل فى أخذ أحاديثه والغفلة والسهو وما تبع ذلك من الانقطاع والإرسال والتدليس وغيرها ».

والمقصد الخامس يوضح الخطوات التى سار عليها النقاد، وقد تضمن مبحث مراعاة العقل فى قبول الحديث ورفضه، وهذه النقطة مهمة جدا، فان بعض الناس انخدعوا بكلمة « مراعاة العقل » وفسروها تفسيرا خاطئا جدا.

والمقصد السادس تضمن الأسس المبدئية لقواعد النقد، والقواعد العامة للنقد، واسباب الجرح فى الضعفاء.

وذكر فى المقصد السابع خطوات الجهود النقدية وآثار هذه الجهود.

أما أبواب الكتاب فقد بدأ المؤلف الباب الأول بتوطئة عن الاسناد وأهميته، ثم تكلم فى الفصل الأول عن العدالة، وفى الفصل الثانى عن الضبط، وفى الفصل الثالث عن الاتصال والانقطاع وطرق تحمل الحديث، وفى الفصل الرابع عن الشذوذ،

وبدأ الباب الثانى بتوطئة عن اهتمام المحدثين بنقد المتن، ثم تكلم فى الفصل الأول عن العلة وقواعد إدراكها، وفى الفصل الثانى عن الشذوذ، وفى الفصل الثالث والرابع عن الموضوع ومعرفته.

أما الباب الثالث فانه مخصص للرد على مزاعم المستشرقين وأتباعهم، وخاصة الزعم بأن المحدثين لم يهتموا بنقد متن الحديث. وهذا الباب جديد نافع مهم.

وفى الخاتمة أورد المؤلف النتائج التى وصل اليها بعد الدراسة التى قام بها حول موضوعه.

وإذ أهنىء المؤلف الفاضل على هذه الدراسة النافعة أسأل الله تعالى أن يكتب لها الانتشار والقبول وينفع بها الاسلام والمسلمين ويوفق الباحث لمواصلة الجهود فى خدمة السنة النبوية الشريفة فان العصر بحاجة ماسة الى ذلك. صلى الله تعالى على رسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين...

(اعداد : مقتدى ياسين الأزهرى.)

فى ١٠ شعبان ١٤٠٨ هـ